العلم والاخلاق

الاستاذ هولدين الذي نلخص عنه هذا المقال من اشهر كتاب الانجليز وكبار مفكريهم، كما انه من اشهر علماء البيولوجيا في العصر الحاضر. والمقال الذي نلخص عنه هذه الآراء قد صيغ في قالب الرد على الاسقف انج الحكيم المعروف. فتركنا من المقال الاصلي كل ما هو خارج عن موضوع البحث حاذفين ما وجه فيه من الردود الى الاسقف مكتفين بأن نعطي القراء في هذه الاسطر لب الآراء الاساسية التي تقوم في عقل الكاتب الكبير

يؤثر العلم في الاخلاق من خمس طرق مختلفة على الاقل. ولا ريب في انَّ حصرنا هذه الطرق التي يؤثر من طريقها العلم في الاخلاق، يساعدنا بدياً على تحديد هذا الموضوع العام تحديداً نتوخى من طريقه ان نفصله تفصيلاً تاماً على قدر الامكان واليك بيان هذه الطرق الخمسة

١ — ان تطبيق العلم بصورة عملية يخلق واجبات جديدة ويوقفنا امام مسؤوليات لم نكن لنفكر فيها من قبل. فان قحطاً اذا كان قد وقع في بلاد الصين منذ قرنين فرطا من الزمان، لم يكن ليضع الرجل الانجليزي او الامريكي ازاء اية مسؤولية مهما كان نوعها، لانهُ لم يكن في استطاعة احد ان يمدّ يدهُ الى مساعدة المكوبين بأية وسيلة. أما اليوم فان استخدام البخار في السفر والكهربائية في نقل الاخبار، كلاهما جعل القيام بمثل هذا الواجب مستطاعاً

٢ — قد يقيدنا العلم بواجبات ويضعنا امام مسؤوليات محدودة بما يظهر لنا من نتائج ينتظر وقوعها تبعاً لاعمال نقوم بها. فاننا جميعاً متفقون على انهُ لا ينبغي لاحد أن يلوث مياه الشرب بميكروب التيفوئيد مثلاً. وفي الجائز ان نكون منقسمين في الرأي تلقاء تطعيم اولادنا بمصل الجدري، ونحن اشد انقساماً في الرأي لدى البحث في هل يجوز ان نمنع رجالاً ونساءً من التمتع بحقوق الابوة والامومة اذا دلنا العلم على ان تزاوجهم قد ينتج اولاداً مصابين بنقص في التكوين الطبيعي او بامراض تنتقل بالوراثة

٣ — يؤثر العلم فيما نرى من قواعد الاخلاق بأن يغير من وجهة نظرنا في طبيعة الدنيا التي نعيش فيها، كاخضاع الميثولوجيا لسلطانه. فان شخصاً ما قد ينظر في الحيوانات والانسان نظر القانع بان الجميع من « اخوة » واحدة او « اولاد عمومة » اذ يرجع الجميع الى اصل واحد منهُ اشتقوا، وبذلك يزيد مقدار ما يخضع لهُ من الواجبات

والالتزامات الادبية . في حين ان آخر يرى أن أنبل ما تمَّ عليه الطبيعة البشرية من الاعمال ليس الاَّ تاجاً لقانون التناحر على البقاء الذي لا يعرف اخلاقاً ولا يقبل في الوصول الى نتائجه المحتومة من هوادة ، وبذلك يرفض عن اعتقاد واقتناع ان يساعد الضعفاء والمرضى الذين يقاسون الآلام . وهنالك ثالث يتأثر بما يرى في الانسانية من تكالب على الحطام والمتاع ، فيلجأ الى صورة من صور الايقورية المهذبة ويقبع في عقر داره غير حافل بما يقوم حوله من جلبة الاجتماع . على انك في كل مظهر من هذه المظاهر تقع على عنصر بعينه من عناصر الحق الثابت

٤ — كلما تقدم علم الانسان — الانثروبولوجيا — خطوة نحو التحديد الذي يدخله في منطقة العلم الصحيح ، فانهُ في كل خطوة يخطوها في هذه السبيل يؤثر تأثيراً عميقاً فيما ندرك من معنى الاخلاق وما تصور من اصطلاح الآداب ، اذ يظهرنا كل يوم على « قانون » جديد من قوانين الاخلاق هو بذاته واحد من مجموع القوانين التي يعكف عليها ويعتقد بصحتها ويطبقها بغير تلك اقوام تختلف نزعاتهم وطباعهم وعناصرهم وبذلك يضع امامنا علماً جديداً يتفرع منهُ هو علم الاخلاق المقارن

٥ — واخيراً قد يؤثر العلم في الاخلاق من طريق ذلك الاسلوب الذي يعكف عليه رجال العلم لدى النظر في حقيقة العالم . لان هذا الاسلوب يقوم لدى الواقع على احترام الحق ، ورفض كل النتائج التي لا تبررها البراهين والمشاهدات ، تلك النتائج التي تختص بها صور الدين ومذاهب اللاأدرية . ناهيك بما يستتبع هذا الاسلوب من كبت العواطف والانفعالات على قدر المستطاع ، لان اطلاق العواطف من عقال العقل اكبر عقبة تقوم في سبيل الوصول الى الحق . فرجل العلم يستوي عندهُ الاهتمام باجل زهرة وأخبث حشرة ، وان كان عملهُ النهائي يرمي الى ابقاء النوع الذي ينتج الازهار الجميلة ، وافناء النوع الذي ينتج اخبث الحشرات

***

على اني اعتقد ان الوجه الثاني من اوجه هذه العلاقة التي تربط بين العلم والاخلاق هو اكثر وجوه هذه العلاقة نفعاً من طريق العلم . فان العلم بما يخلق لنا من مضاعفات شديدة في الحياة يزودنا بفرص تمهد لنا سبيل الخطيئة ، ربما يؤدي اليه تغير في وجهة نظرنا الى العالم ، قد يحملنا على ان نلجأ الى صورة من صور الفوضى الاخلاقية . غير ان العلم على الرغم من كل هذا لا يضرُّ بنا اذ يظهرنا جلياً على نتائج افعالنا وان

اعداء العلم يزعمون ، وذلك في الوقت الحاضر على الاقل ، بان علاقته العملية بالذوات البشرية ، ما دامت قاصرة على الابدان دون الارواح ، فانهُ يحملنا على ان نعنى بما هو اسفل وان نهمل ما هو اعلى ، وانهُ يصرفنا بذلك عن العناية بأمر اخواننا في الانسانية . على اني بوجه عام ارحب بهذه الاقوال ولا آنف من ان افتخر بها ، لاني على الرغم من اني لا اعتقد بوجود روح مفارقة للبدن ، اعتبر ان خير البدن مساوٍ لخير الروح ، اذ في كليهما ينحصر معنى الانسان منظوراً اليهِ من وجهة خاصة

اعتقد اني اتبع « قاعدة الاخلاق الذهبية » ما دامت واجباتي نحو اخي في الانسانية قاصرة على ان اطعمه اذا جاع واكسوه اذا عري واعتني بهِ اذا مرض . ذلك لاني اريد ان يفعل بي اذا ما اصبت بشيء من الجوع او العري او المرض مثل ما افعل بغيري . ولكني اذا اردت ان اتخطى حاجات البدن من امر العناية بأخي الانسان ، فأني اجتهد في ان اعلمهُ رغم انفه وعلى الضد من ارادته ، وان اقنعهُ بما اعتقد وان اطبعه بطابعي سواء اكنت متديّناً او لا ادريًّا او ملحداً . فاذا امعنت في عملي هذا انتهيت اما بان ارسل جماعة للتبشير بين اهل الوثنية ، او اجهز جيشاً يقوم بحرب صليبية لبغي الكفار من وجه البسيطة . واني لاعترف باني لن افزع من فكرة وضع نظام اخلاقي تكون وجوه الخير التي نحاول ان نفرضها على اخواننا في الانسانية ذات صبغة مادية ، وان يحل فيهِ قانون الصحة محل فكرة الخلاص الاخروي

اذا اعتبرنا هذه الحقائق في مجموعها استبان لنا أن حفظ الصحة يحتاج الى درجة خاصة من التعليم ، ولما كان نوع التربية او التعليم الذي يحتاج اليهِ كي نصل الى هذه النتيجة تابعاً لعلم البيولوجيا بالذات ، ولما كنت معدوداً من البيولوجيين ، اصبح من الطبيعي أن اجعل اذا ما رأيت المعلومات البيولوجية تنتشر بين الناس . واذا صح أن الغاية من التعليم تنحصر في ان يعرف الانسان نفسهُ ، كان من الضروري ان يبدأ الانسان بمعرفة ما يؤدي الى هذه النتيجة ، فيعمد الى درس التشريح والفسيولوجيا . فاذا رمينا في امر اصلاح الانسانية الى غرض لا يقلُّ عن هذا شأناً بان فكرنا في جعل الناس اكثر احتمالا للشدائد واقوى مراساً في العمل ، كان لا مندوحة لنا عن أن نلجأ الى علم الصحة نذيع قواعده وننبّها في صدور الناس . فاذا نظرت بجانب هذا الى عالم السياسة والاقتصاد الفيت ان الضرر او سوء الطالع الذي يصيب رفيقي قد يكون فيهِ فائدتي . اما في علم الصحة فالواقع على الضد من ذلك . فما دام لدينا دساكر

في وسط المدن ومحافر تنشر البار في الجو ، فلدينا اوساط حسنة يربى فيها ميكروب السل ، الذي يصيب الفقير والغني على السواء . وما دام لدينا اسر يعيش ستة افراد منها في حجرة واحدة ،فاننا عاجزون عن ان نمنع انتشار مرض الدفتيريا او الحصبة

ولا شبهة مطلقاً في اننا اذا اعتبرنا هذه النتائج في مجموعها بان لنا ان زيادة قوة الاحتمال في الناس والعمل لها ، مسألة تتعدى حدود الشعبية والسلالة والنوع . اي انها مسألة لا يجب ان يعنى بها شعب دون شعب ولا سلالة دون سلالة ولا نوع دون نوع. فكل طفل روماني يصاب بالفالج ، وكل هندي يصاب بالجذري ،وكل جرذ يحمل ميكروب الطاعون ، كل هؤلاء انما يظهرون في عجزهم بمظهر يؤثر من ناحية ما في الاعمار بما ينقصها

يقول لنا بعض علماء ممن درسوا علم النفس وهم فوق ذلك متشائمون من الحياة متبرمون بها ، ان الناس لا يمكن ان يكونوا مجاميع كبيرة الا اذا غزا نفوسهم الخوف واكل صدورهم الحقد والكراهية على اني اعتقد ما دام في جو الكرة الارضية ميكروب يسبب مرضاً وبائيًا ،فان الناس سوف يقعون دائماً على اسباب للكراهية واخرى للخوف تفت دائماً في عضد الانسانية

لست من الماديين ، ولكن لا اعتقد ان تأثير العلم ماديًا في قانون الاخلاق قد كان ذا اثر سلبي . فان علاقة العلم بالاخلاق لم تؤثر في نفي كثير من صور الخير والشر التي قامت في عقول الناس لاغير ، بل انها خلقت حالة ما تساوت فيها فكرتا الانانية والغيرية . وان دستوراً ماديًا ، كالصحة العامة مثلاً ، له من الفوائد ما لا نستجليه في غيره من المبادىء الهيدونية — التي تقول بان اللذة غاية الحياة — كالسعادة مثلاً ، لان في استطاعتنا ان نقارن بين صحة اثنين ، في حين ان المقارنة بين مقدار سعادتهما مما يخرج عن طوق استطاعتنا

***

وهنالك وجوه أخرى من العلاقات التي ابرزها العلم بين حاجات الحياة والاخلاق . على اننا اذا نظرنا بتأمل وجدنا ان اخص هذه الاوجه انما تجتليها اذا اكببنا قليلا على التأمل في حالات اوجدها علم البيولوجيا في الحياة . على اننا نريد ان نخلص من هذا التمهيد بفكرة فلسفية لانريد ان نفوتها على القارىء .فان هذه العلاقات الجديدة التي جدت بتجدد المعرفة بين العلم والاخلاق ، قد قلبت الفكرة في «الحقيقة». فقد تبدل الناس في الاعتقاد بان « الحقيقة » انما ترجع الى « الخير » اعتقاداً آخر

اثبت في روعهم ان « الحقيقة » انما ترجع الى الشهادة — الى عالم الكون والفساد ، الى المادة والعلاقات المادية. ومهما اختلف الناس في تقدير فكرة الحقيقة ، فان العلم يقول بانها نسبية وهذا حد الامكان الذي يفتح فيه امام العقل البشري باب الانتاج الصحيح

نرجع لدى الكلام في علاقة البيولوجيا بالاخلاق الى الحقائق التي هي اثبت من غيرها عند العلماء . اننا نعرف النواميس التي تتحكم في توريث عدد من النقائص الخلقية وبعض هذه النقائص ، كالعمى اللوني مثلا ، غير ذات شأن كبير ، ما دمنا نستطيع ان نجعل سائقي السيارات والملاحين من غير هؤلاء . اما غير هؤلاء ، كالذين يكونون قصيري الاصابع مثلاً ، فقد نعتبرهم ضرراً ينزل بالانسانية . ثم هناك طبقة ثالثة ، كالمصابين بالهاموفيليا — امتناع تخثر الدم — والمصابين ببعض ضروب من الصمم ، فان هؤلاء يمتنع عليهم ان يعيشوا على صورة طبيعية ، ولا يمكن ان يفيدوا في الحياة شيئاً ، بل لا نبالغ اذا قلنا بانهم خطر على الحياة ذاتها

فاذا عرفنا ان هذه الامراض تتوارث في كثير من مختلف الصور والاحوال ، وان الصورة التي تظهر فيها هذه الامراض موروثة قد تجعل تطبيق قواعد اليوجينية — تحسين النسل — مستطاعاً او غير مستطاع ، حُدّد اذ ذاك موقفنا ازاء المصابين بهذه الامراض وما يماثلها . فاذا اعدمنا مثلاً كل الذين هم ذوي اصابع قصيرة صحيحة الغد ، فاننا ولا شك نقضي على هذه الصفة من الانسان قضاء تاماً . ولكن على الضد من ذلك يكون حالنا اذا نحن قتلنا كل المصابين بالهاموفيليا . فاننا ولا شك نحتاج بعد ذلك الى مئات من الاجيال حتى نستطيع ان نختزل عدد المصابين بهذا المرض الى نصف العدد الموجود الآن . والطريقة العملية في معتقدي هي ان المصابين بمثل هذه الامراض يجب ان يحذروا من صفات النسل الذي ينتج عن تزاوجهم ، وان يعهد لهم كل سبيل مستطاع ليقنعوا بان يعيشوا بلا عقب . ولكني بجانب هذا لا أرى مسوغاً من حالات الاجتماع في الوقت الحاضر يحملنا على الاعتقاد بان تنفيذ هذه النظرية جبراً في حد الاستطاعة . على ان الوقت لا بد من ان يهيئ الافكار لقبول مثل هذه المبادئ

تصح لدينا هذه النظرة ذاتها اذا نحن حاولنا تطبيقها على نسبة النسل . فان الاغنياء في انجلترا يتناسلون بنسبة اقل من تناسل الطبقات العاملة ، وان زيادة النسبة في موت الاطفال بين هذه الطبقات الدنيا ، لا يعوض عن الفرق في نسبة زيادة النسل ولم تبدأ هذه الظاهرة الا منذ جيلين فقط ، والغالب انها سوف تذهب آثارها مع

تقدم الحالات الاجتماعية . ذلك لاننا نجد في استكهولم ، حيث لا يعيش الفقراء في دماكر قذرة كما هي الحال في لندن ، وحيث تحفظ هنالك سجلات دقيقة تعرف بها نسبة النسل بين الطبقات ، أن نسبة النسل بين الاغنياء تزيد عنها بين الفقراء . وكذلك يخيل الينا ان هنالك علاقة بين الغنى وبين العوامل الوراثية التي تجدد كمية الذكاء ، ولو لم تثبت الابحاث العلمية هذا الامر اثباتاً قاطعاً . لان طبقة الاغنياء تتكون من مجموع من الاسر هم لدى الواقع من الطبقة ذوات المهن الفنية والذين يتوارثون الذكاء بلا ريب في حين ان افراد طبقة العمال هم الذين توجد بينهم الاسر التي اتصفت بالضعف الذهني

على ان معلوماتنا في توارث الكفايات العقلية غير كاملة حتى نستطيع ان نقضي بحكم في ان خضوعها عدة اجيال متعاقبة لفعل الانتخاب قد يقضي عليها الى حد ما ، ولو ان كل الظواهر تدل على ان الطبيعة متجهة في هذه السبيل . فاذا سلمنا مع هذا بوجهة نظر المتطرفين من المشتغلين بالديوجنية فماذا تكون النتيجة ؟ يقول الاسقف « انج » وغيره من الغلاة ان الحكومة يجب ان تعرض لكان الدساكر معاشاً يخرج من خزانة الدولة كل سنة ليزدادوا عدداً ويكونوا عائلات اضخم . في حين ان غيرهم يقولون بان مساعدة هؤلاء على حساب الدولة جريمة

فاذا رجعنا الى تعاليم البيولوجيا وجدنا ان هناك خلافاً يقوم بين مدرستين . مدرسة تستوحي العلم وأخرى تستوحي المشاعر والوجدان . ولا جرم ان هذا الخلاف سبب من اكبر الاسباب التي جعلت كثيراً من الناس يتكون لاول وهلة في النتائج التي يصل اليها العلم وما هم منها في كثير ولا قليل

والحصل أن الاخلاق اذا قامت على العلم لا على الوجدان ، وتحددت علاقاتها بمقتضى ما ينفع في الحياة من ظروف ، وما يقوم فيها من حالات ، استطعنا ان نعتبر الانسانية كلاً أعظم ، على الفرد نحوه مسؤوليات وللفرد عنده واجبات . فالخلية في الجسم الحي تعاون في بناء الحياة ، ولكنها في حياتها الفردية أسعد حالاً ، اذا هي تورمت بفرد من البروتوزوى مثلاً . فاذا كان الكل الاعظم مستقلاً استقلالاً تاماً عن افراده ، اي اجزائه المكونة له ، فلا جرم تكون سعادتهم بعيدة عن ان تؤثر في حالاته أو تكون ذات فائدة له . اما اذا اعتبرنا ان في حياتهم حياته ، وفي سعادتهم سعادته ، وانه لن يكون له من وجود الا بهم ولهم ، أصبحت حقوقهم حقوقه ، وواجباتهم واجباته ، ومسؤولياتهم مسؤولياته

اسماعيل مظهر